المحور الرابع: مقاربات تفسير السياسة الخارجية

مقاربة السياسة الخارجية المقارنة

د/ محزم عبد المالك

قسم العلوم السياسية، جامعة أم البواقي

ظهرت المجهودات النظرية المنصبة حول المقارنة في السياسة الخارجية في منتصف ستينيات القرن العشرين على يد مجموعة من المنظرين يصنف جلهم في إطار المدرسة السلوكية في العلاقات الدولية. ينطلق رواد هذه المقاربة من محاولة تفادي الأخطاء التي وقعت فيها جل المقاربات التي ظهرت في حقل السياسة الخارجية، والمتمثلة على وجه التحديد في مأزق مستوى التحليل ومأزق متغيرات التحليل. ذلك أن كل هذه المقاربات تنطلق من مستوى تحليل محدد (كلي، جزئي، ووسطي)، من خلال التركيز على صنف معين من أصناف المتغيرات المؤثرة في السياسة الخارجية، وتهمل في المقابل، بقية مستويات ومتغيرات التحليل، وهو ما يجعل هذه المقاربات بعيدة عن المتطلبات والشروط الأساسية للنظرية العلمية. لذلك تتضاءل القدرة التفسيرية لهذه المقاربات للسلوك الخارجي الذي يحتوي على حالات عامة ومعقدة تتطلب ضرورة التركيز على مختلف المتغيرات ومختلف مستويات التحليل.

لهذا السبب يعتقد "ج. روزنو J. Rosenau" أن البحوث في السياسة الخارجية تفتقر إلى الأدوات المنهجية التي تسمح من تحديد درجة تأثير مختلف المتغيرات سواء بالزيادة أو بالنقصان على حالات متشابهة . السياسة الخارجية الغير فالطبيعة المتغيرة باستمرار للنظام الدولي تجعل السلوك الخارجي للدول يختلف من مرحلة لأخرى، فإذا كانت الإيديولوجية قد لعبت دورا بارزا في توجيه السياسة الخارجية للدول أثناء الحرب الباردة أو أثناء نظام الثنائية القطبية، فإنها أضحت تلعب دورا أقل أهمية في النظام الدولي الحالي الذي فرض متغيرات أخرى ذات طبيعة اقتصادية وحضارية. لذلك تصبح مسألة الاعتماد على المناهج العلمية ضرورة ملحة لبناء الأطر النظرية التي تمكن من تفسير السلوك الخارجي، والتكهن بتطوراته المستقبلية. فالسلوك الخارجي للدول قابل للملاحظة والاختبار والتجريب والمقارنة إذا تم تحديد المتغيرات المتفاوتة التأثير.

يعتقد "روزنو" أن السلوك الخارجي للدول هو سلوك تكيفي وغير ثابت، ولكن الطريقة التي تتكيف من خلالها الدول مع ما يحدث من تطورات في البيئة الخارجية تختلف من دولة لأخرى فالحالة الداخلية للدول والضغوطات التي تفرزها التفاعلات الإقليمية والدولية تلعب دورا أساسيا في تحديد شكل ومحتوى نموذج التكيف الملائم لكل وحدة سياسية.

ولدراسة صيغة التكيف المعتمدة كما يحدث في جل حالات السياسة الخارجية -فإن المهتم بعملية التحري في السياسة الخارجية، يجد نفسه مضطرا من الناحية المنهجية للإجابة عن ثلاثة أسئلة: ماذا حدث، كيف حدث، ولماذا حدث؟ . في هذا السياق تحدد مقاربة المقارنة في السياسة الخارجية أربعة أنواع من التكيف.

أ- التكيف المرغم أو المفروض Acquiescent Adaptation : الذي يتمثل في الاستعداد لتغيير السلوك الخارجي وكذا المؤسسات الداخلية استجابة للطلبات والضغوطات الصادرة عن إحدى مكونات البيئة الخارجية (أقرب قوة عظمى مثلا).

ب- التكيف العنيد والمتصلب Intransigent Adaptation: وهو الذي يحدث عندما يحاول مجتمع ما تغيير بيئة السياسة الخارجية بما يتوافق مع إحدى اهتمامات ومطالب المجتمع ، وهو التكيف الذي يميز السياسات الخارجية لمختلف القوى الكبرى ذات التأثير في البيئة الدولية.

ت- التكيف المشجع Promotive Adaptation" الذي يمنح حرية ج واسعة لصناع القرار الذين يواجهون ضغوطا مركزة من البيئتين الداخلية والخارجية من أجل إحداث التغيير في التوجه العام للسياسة الخارجية.

ث- التكيف الواقي Preservative Adaptation" وهو الذي يميز حالات التحوّل التي تتميّز بمطالب وضغوط متناقضة أفرزتها البيئتين الداخلية والخارجية والتي قد تفضي إلى انعكاسات سلبية على الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي للوحدة السياسية.

غير أن التركيز على نتائج وانعكاسات هذه الأصناف من التكيف على المقومات الأساسية للدولة جعلت رواد المقارنة في السياسة الخارجية يستقرون على صيغتين للتكيف: تكيف سلبي وتكيف إيجابي. فالتكيف الإيجابي، يتعلق بإحداث تحولات على السلوك الخارجي دون المساس أو التراجع عن المقومات والهياكل الرئيسية التي يقوم عليها المجتمع، وهنا يكون التكيف جزئي أو نسبي، كما فعلت الصين في فترة ما بعد الحرب الباردة، إذ أدخلت تعديلات معتبرة على أنماط إدارة الشؤون الاقتصادية والتجارية دون أن يمتد ذلك إلى صلب نظامها السياسي والحزبي وطبيعة أيديولوجيتها الرسمية . أما التكيف السلبي، فيتعلق بإحداث تحولات راديكالية في السلوك الخارجي عن طريق القيام بإحداث تغير جذري في المقومات والبنى والأسس الرئيسية للنظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي للدولة، وهو ما حدث في كل من الاتحاد السوفيتي (سابقا) بعد عملية التفكك، وفي جل الدول العربية التي كانت تتبع منهجا سياسيا يساريا.

يبدو أن أصالة، مقاربة المقارنة في السياسة الخارجية، تتمثل في تحديد متغيرات التحليل وتبيان درجة ومحتوى العلاقة بينها . وعلى هذا الأساس يعتقد "روزنو" أن مقاربة المقارنة في السياسة الخارجية لا يمكن أن تأخذ بعدها ومصداقيتها العلمية دون الإجابة عن الأسئلة التالية: ما هي وحدات السلوك التي يجب المقارنة بينها؟ ما هي المتغيرات المستقلة للمقارنة؟ ، ثم ما هي المتغيرات التابعة للمقارنة؟ . فالباحث المهتم بالمقارنة في السياسة الخارجية يجب أن تكون له راية ومفهوم واضح حول فواعل ومتغيرات السلوك الخارجي، وعليه فإن مخرجات عملية اتخاذ القرار (أفعال، ردود أفعال، تصريحات، مواقف...الخ) هي بمثابة المتغير التابع الذي تحدد شكله ومحتواه.

حجم الدولة	دول كبيـــرة				دول صغيـــرة			
الوضعية الاقتصادية	متقدمـة		متخلفـة		متقدمـة		متخلفـة	
طبيعـة النظام السياسي والاجتماعي	منفتح	منغلق	منفتح	منغلق	منفتح	منغلق	منفتح	منغلق
ترتيب المتغيرات من حيث أهمية التأثير في السياسة الخارجية	2	2	1	1	2	2	1	1
	4	1	2	2	5	5	5	5
	3	3	4	3	4	1	2	2
	5	5	5	5	3	3	4	3
	1	4	3	4	1	4	3	4
أمثـــلة	الولايات المتحدة	الاتحاد السوفياتي	الهند	الصين	هولندا	تشيكو سلوفاكيا	كينيا	غانا

ملاحظة: المتغيرات الفردية:1، متغيرات الدور:2، المتغيرات الحكومية: 3، المتغيرات المجتمعية:4، المتغيرات النسقية والخارجية: 5.